مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ٦: ١٣–٢٠)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ لمَّا وعدَ إبرهيمَ إذ لم يُمكِنْ أن يُقسِمَ بما هو أعظمُ منهُ أقسمَ بنفسِهِ* قائلاً لأُباركنَّكَ بركةً وأُكثِّرنَّكَ تكثيرًا* وذاكَ إذ تأنَّى نالَ الموعِدَ* وإنَّما الناسُ يُقسمونَ بما هو أعظَمُ منهم وتنقضي كلُّ مشاجرةٍ بينهم بالقَسَمِ للتثبيتِ* فلذلك لمَّا شاءَ اللهُ أن يَزيدَ وَرَثةَ الموعدِ بيانًا لِعَدَمِ تحوُّلِ عزمِهِ توسَّطَ بالقَسَمِ* حتى نحصُلَ بأمرَيْنِ لا يتحوَّلانِ ولا يمكنُ أن يُخلِفَ اللهُ فيهما على تعزيةٍ قويَّةٍ، نحنُ الذينَ التجأنا إلى التمسُّكِ بالرجاءِ الموضوعِ أمامنا* الذي هو لنا كمِرساةٍ للنفسِ أمينةٍ راسِخَةٍ تدخلُ إلى داخلِ الحجابِ* حيثُ دخلَ يسوعُ كسابقٍ لنا وقد صارَ على رُتبَةِ ملكيصادقَ رئيسَ كهنةٍ إلى الأبد.

الأحد الرابع من الصوم

«أيها الأب البار، لقد سمعت صوت إنجيل الرب فغادرت العالم والغِنى والشرف واحتسبتها كلا شيء. لذلك هتفت نحو الكل: أحبّوا الله فتجدوا نعمة أبدية، لا تفضّلوا شيئاً عن محبّته لكيما إذا وافى بمجده تصادفوا النياح مع جميع القديسين. فبشفاعاتهم أيها المسيح احفظ وخلص نفوسنا» (من صلاة غروب الأحد الرابع).

العدد ١١/٢٠٠٧
الأحد ١٨ آذار
الأحد الرابع من الصوم
(أحد البار يوحنا السلّمي)
تذكار أبينا الجليل في القديسين
كيرلس رئيس أساقفة أورشليم
اللحن السابع
إنجيل السَحَرْ الد

بعد تكريمنا الصليب المقدّس في الأحد الماضي والأسبوع كلّه، نكرِّم في الكنيسة هذا الأحد القديس يوحنا السلّمي الذي عكس في حياته النسكيَّة وكتاباته الطريق العملية لعيش الصليب في حياتنا اليومية. فقد علّم انه لا يكفي أن نكرّم الصليب بل يجب أن ننقله إلى حياتنا هذه لننال الخلاص.

عاش القديس يوحنا السلّمي في القرن السابع راهباً في دير القديسة كاترينا في سيناء (توفي عام ٦٧٠)، وقد وضع كتاب «سلّم الفردوس»، ومنهم من يسمّيه «سلّم الفضائل» أو «السلّم إلى الله» وذلك نظراً إلى فحواه. يرسم القديس لنا ثلاثين درجة تشكِّل مراحل التدرّج في محبّة الرب. فهو ينتقل في الحديث عن الزهد إلى الطاعة والتوبة والوداعة والحقد والثرثرة والكذب والضجر وحب المال والشره والصلاة والسهر الروحي والتكبّر والتواضع. من خلال عيش هذه الدرجات يرتقي الإنسان المسيحي نحو الكمال الأخلاقي الروحي فيحصل على نِعَم الصليب المقدَّس والقيامة المحيية، يحصل على الخلاص. نظراً لأهميَّة هذا الكتاب في قيادة الرهبان نحو شجرة الحياة، شجرة الصليب، درجت العادة منذ القديم أن يُقرأ في الأديار في فترة منتصف الصوم. لذا قد تكون هذه العادة هي السبب في تكريس الأحد الرابع من الصوم لإقامة تذكار للقديس يوحنا السلّمي.

تمدح الكنيسة، في صلوات هذا اليوم، يوحنا لأنه «كان على الأرض ملاكاً وفي السماء إنسان الله»، فتقدمه لنا نموذجاً نتمثله في سلوكنا درب الخلاص. لكن الكنيسة تلفت انتباه المؤمنين، من خلال مديح البار يوحنا، على ان الخلاص هو نتيجة العمل المشترك لنعمة الله فينا ولجهادنا: «أيها الأب البار... اتخذت صليبك واتبعت المراقب الكل وبقوَّة الروح عبدت الجسد العسر الانقياد للعقل

الإنجيل

(مرقس ٩: ١٧-٣١)

في ذلك الزمانِ دنا إلى يسوعَ إنسانٌ وسجدَ لهُ قائلاً يا معلّمُ قد أتيتُك بابني بهِ روحٌ أبكم* وحيثُما أخذَهُ يصرعُهُ فيُزبِدُ ويصرفُ بأسنانهِ ويَيْبس. وقد سألتُ تلاميذَك أنْ يُخرجوهُ فلم يقدروا* فأجابهُ قائلاً أيُّها الجيلُ غيرُ المؤمن إلى متى أكون عندكم حتَّى متى أحتمِلُكم. هلمَّ بهِ إليَّ* فأتَوهُ بهِ. فلمَّا رآهُ للوقت صرَعَهُ الروحُ فسقطَ على الأرضِ يَتَمرَّغُ ويُزبِدُ* فسأل أباهُ منذ كم من الزمان أصابهُ هذا* فقال منذ صباه، وكثيرًا ما ألقاهُ في النارِ وفي المياه ليُهلِكَهُ. لكنْ إن اسْتطعتَ شيئًا فتحنَّنْ علينا وأغثْنا* فقال لهُ يسوعُ إن استطعتَ أنْ تؤمِنَ فكلُّ شيءٍ مُسْتطاعٌ للمؤمن* فصاحَ أبو الصبيّ من ساعَتهِ بدموع وقال إنّي أُومِنُ يا سيّد. فأغِثْ عدم إيماني* فلمَّا رأى يسوعُ أنَّ الجمعَ يتبادرون إليهِ انتهرَ الروحَ النجسَ قائلاً لهُ أيُّها الروحُ الأبكمُ الأصمُّ أنا آمرُك أن اخْرُجْ منهُ ولا تعُدْ تدخلُ فيه* فصرخَ وخبَطَهُ كثيرًا وخرجَ منهُ فصار كالميتِ حتَّى قال كثيرون إنَّهُ قد ماتَ* فأخذَ يسوعُ بيدهِ وأنهضهُ فقام* ولمَّا دخلَ

بيريدون منه أكثر من أن يبقى في بيته ينعم بالحياة الدنيا، بل أن يصعد الجبل ليتمرّس برياضات نسكيَّة».

صلوات سَحَر هذا الأحد الرابع من الصوم تظهر الإنسان جريحاً، عارياً، منهوك القوى، بين حي وميت كالمسافر في مَثَل السامري الشفوق (لوقا ١٠: ٢٥-٣٧) تتعبه الأهواء والتجارب وترميه على حافة الطريق ولا أحد ينجيه، فينتظر تدخّل المسيح. «ان اللصوص قد سلبوا أفعالي الإلهية وغادروني بالجراحات معذباً... أيها المخلّص ان أفكاري التي لا تهدأ قد عرّتني من وصاياك ولأجل ذلك أنا مجلود بالزلات... ان اللاوي لما شاهدني بالكلوم مهشّماً لوى عني لكن أنت خلّصني يا مخلّص» (الأودية الرابعة). صحيح اننا مجروحين بالخطايا الكثيرة التي نرتكبها ولا نملك مقدرة الشفاء منها، إلاّ أن رجاءنا هو بالرب القادر على إخراجنا من ورطتنا. تتركنا الخطيئة «بين حي وميت» على الطريق بين أريحا وأورشليم، بين الأرض والسماء، بانتظار من سيخلصنا. الرب يسوع هو السامري الشفوق ووحده قادر على تخليصنا من هجمات اللصوص، من هجمات الشرير. المسيح يضمِّد جراحاتنا ويشفيها بمقدار ما نضع رجاءنا عليه. «ان الذي سقط فيما بين اللصوص وأضاع ثروتك هتف نحوك منتحباً لا تعرض عني يا مخلّص أنا المدنف (مريض مشرف على الموت) جداً. فهكذا وأنا أضرع نحوك أن تترأف علي وتخلّصني» (الأودية الأولى). نستغيث بالرب والرب يضع الضمادات على جراحاتنا، وجسدنا يقاوم معه ضد جراثيم الخطيئة فننجو ونحصل على الخلاص. البار يوحنا السلّمي يعلّمنا ان الضمادات التي أعطانا إيّاها يسوع لنشفى هي الفضائل.

أخيراً، لعل صرخة والد الصبي في المقطع الإنجيلي الذي نقرأه اليوم «إنّي أؤمنُ يا سيّد، فأغِثْ عدم إيماني» هي الصرخة التي يجب أن يصرخها كل واحد منا متضرعين إلى الرب أن ينقذنا من خطايانا ومن حيل الشرير. كلنا يصرعنا الشرير بخطايا مختلفة فنزبد ونصرف بأسناننا ونيبس. الرب جاهز لإنقاذنا، لكن هل سنصرخ إليه ليُخلِّصنا أم سنتغيث بآخر؟ المهم ان نطلب منه وحده وليس من غيره. قد يملك غيره مسكِّناً للوجع ولكن شافي أصل المرض واحد وهو الرب يسوع. لقد أتى أنبياء وكهنة كثر في العهد القديم، كما قدمت الذبائح الكثيرة، لكن كاهن واحد وملك واحد ونبي واحد وذبيحة واحدة محت خطايا البشر، انها ذبيحة يسوع على الصليب. أهّلنا الرب أن نسجد لصليبه ونعاين قيامته المجيدة.

حول الإنجيل

تقول الآية الشريفة التي تسبق النص الإنجيلي لهذا اليوم: «وللوقت كل الجمع **لما رأوه تحيّروا**، وركضوا وسلّموا عليه» (مرقس ٩:١٥). هذا لأن السيد كان نازلاً للتو من الجبل حيث عاين تلاميذه الثلاثة، بطرس ويعقوب ويوحنا، مجده الإلهي وسمعوا شهادة الآب. لعل الناس **«تحيّروا»** لما رأوه لأنهم تذكروا وجه موسى المشع نوراً، حين نزل من جبل سيناء حاملاً لشعب إسرائيل رسالة الخلاص (خروج ٣٤:٣٠). فابن الله هنا نزل من محل مجده الإلهي ليلاقي ألم الخليقة شافياً. أهميَّة المقابلة بين الصورتين تكمن في أن الشاب العليل يحكي قصة الخليقة التي «منذ صباها»، أي منذ بداياتها الأولى، تعاني أسر الخطيئة ومضاعفاتها وتنتظر من يأتي ليخلّصها من أسرها. هناك حمل

بيتًا سألهُ تلاميذُه على انفراد لماذا لم نستَطِع نحن أنْ نُخرِجَهُ* فقالَ لهم إنَّ هذا الجنسَ لا يمكن أنْ يخْرُجَ بشيءٍ إلاَّ بالصلاة والصوم* ولمَّا خرجوا من هناك اجتازوا في الجليل ولم يُرِدْ أنْ يدريَ أحدٌ* فإنَّهُ كان يعلِّمُ تلاميذَه ويقول لهم إنَّ ابنَ البشر يُسلَمُ إلى أيدي الناس فيقتلونَهُ وبعد أنْ يُقتَلَ يقومُ في اليوم الثالث.

تأمل

إذا كان الذين يلازمون الأصوام النقيَّة والصلاة الخاشعة يقدرون بقوة الله على إخراج الشياطين وشفاء الأمراض الرديئة كما قال ربّنا. والذين يشتغلون بالأباطيل الدنيوية يسقطون في مهواة الرذيلة فلماذا لا نكون من الأوَّلين. اسمعوا قولهُ مبكتاً لأولئك إيها الجيل الأعوج الغير المؤمن. ومعناهُ انكم تميلون عن سبيل الصالحات وتتمسكُون بالأمور الباطلة وتتخبطون بالشهوات العالمية ولا تؤمنون كما ينبغي فتُحرمون سعادةً لا يُحَدُّ مقدارها. فإذا علمنا ان اللذّات تكون سبباً للرذيلة وعلَّةً للشقاء والهوان فما بالنا نكون طالبين ادراكها وقارعين أبوابها ومتهافتين على تحصيلها ومتمسكين بأذيالها. وكيف نقع في

موسى رسالة الخلاص وهنا ابن الله حمل الخلاص بذاته.

بين هؤلاء رجل يهرع إلى السيد مسترحماً، يؤلمه عذاب ابنه ويحبطه فشل التلاميذ إزاء هذا «الروح الأبكم». ردة فعل يسوع الأولى تأنيبية تشمل الأب الضعيف الإيمان والتلاميذ الذين ما استطاعوا الشفاء والكتبة العالقين في الجدل النظري العقيم، وحتى الجموع التي تبعتهم (راجع الآيتين ١٤ و١٥). «إلى متى أكون معكم، حتى متى أحتملكم»، يسأل السيد الرب. القصة إذاً قصة إيمان. كم من مرة وبخ أنبياء العهد القديم شعب إسرائيل على فسادهم وقلة إيمانهم، بالرغم من حضور للرب ما انفك يعتلن لهذا الشعب بالآيات والمبادرات الخلاصية؟ ربما هذا ما أراد يسوع أن يذكّر به سامعيه عندما بادرهم بكلماته هذه العاتبة، وإن كان ما توقف عندها إذ نراه يبادر للتو نحو والد الشاب المريض مضيفاً «هلّم به إليّ».

ما أن يؤتى بالصبي إلى أمام يسوع حتى يصاب بنوبة جديدة. «فلما رآه صرعه الروح فسقط على الأرض يتمرغ ويزبد». هل لأن الشيطان رأى في الرب يسوع ما لم تره الجموع؟ المؤمن يعرف بخبرة جهاده أن الخطيئة تثور فيه كلما حاول قمعها بالتوبة، والتوبة تجلٍّ من تجليات روح الرب فينا. عندئذ يستفسر يسوع الأب عن زمن مرض إبنه، وهنا أيضاً محطة هامة. الرب لا يسأل ليعرف، وهو العارف بكل شيء، بل لنسمع نحن اليوم ومن هم بعدنا إلى آخر الأزمان، وعبر جواب الأب، أن الجنس البشري يعاني «منذ صباه» من آلام استسلامه للخطيئة ونتائجه الرهيبة. هذا بالإضافة إلى أن الخطوة الأولى إلى الشفاء هي إقرار المريض بعلته. هذه هي التوبة.

بعد استكماله وصف العلة، يسترحم الأب يسوع بشيء من الشك لعله آت من ضعف العاطفة الأبوية. «لكن إن استطعت شيئاً فتحنَّن علينا» هنا يبان لنا الأب، وإزاء حالة مستعصية، كمثل من يسعى في شتى الاتجاهات. جواب الرب كان تعليمياً: «فقال له يسوع: إن استطعت أن تؤمن فكل شيء مستطاع للمؤمن». الرب يسوع يقلب اتجاه المحادثة، وعلى السؤال يجيب بسؤال. ما عادت المسألة في قدرة السيد على إتمام الشفاء، بل في انفتاح الإنسان على الإيمان، حتى في أحلك الظروف وأقساها. في إيماننا تكامل بين النعمة الإلهية وانفتاحنا، بالإيمان، عليها. إذا جلنا على عجائب الشفاء الواردة في الإنجيل نرى السيد في كلها يضع الإيمان أولاً. فهو يغبّط عظمة الإيمان أحياناً كمع قائد المئة (متى ٨: ٧-١٠) والنازفة الدم (متى ٩: ٢١-٢٢)، يستخرجه إلى العلن كمع أعمى أريحا (مرقس ١٠: ٥١) أو يستحثّه ولو بقسوة أحياناً كمع الكنعانية في تخوم صور وصيدا (متى ١٥: ٢٥-٢٨). عجائب الرب لا تأتي إظهاراً لقدراته، بل نتيجة لإيمان أصحاب العلاقة، وهذا في صلب علاقتنا بالعلي القدير على مدى الأزمان.

كلمات الرب يسوع فعلت في الأب المتوجع فعلها مزدوجاً: «أؤمن سيد فأغث عدم إيماني». ها هو الآن، وفي الوقت عينه، يرى في نفسه ولادة الإيمان بقدرة المخلص، وشوقه إلى المزيد من هذا الإيمان. هذه العبارة قالها الأب صارخاً بدموع، لأنه بات يواجه نزاعه الداخلي. هو يعترف بإيمانه الآتي لا من ذاته بل من كلمات الرب يسوع ويجاهر بعدم إيمانه في الوقت نفسه. هل بات الأب في هذا المقطع الإنجيلي هو المريض الحقيقي؟ «كل

مهاويها كالعميان ثم نعود إليها بعد معرفة عواقبها كالمجانين. ويا للعجب من كوننا إذا رأينا التجَّار يكابدون الأتعاب والغربة عن الأوطان وأهوال الطرق ومخاوف البحار ونهب الأموال وغرق البضائع ثم يعودون إلى هذه المخاطر والأتعاب نضحك عليهم ونستضعف عقولهم ونقول ألم يعلم هؤلاء ما يكابدون في تغرُّبهم وما يقاسونه من التعب والغرق والوقوع في المخاوف حتى يرجعوا إليه بسبب فائدةٍ لا تقوم ببعض أتعابهم...

فإذا كانت هذه أفعال التجار في احتمال الأتعاب والمصاعب بسبب المنافع الزائلة. فما بالنا إذا تعبنا في الصوم والصلاة لأجل سعادة الأبد والنعيم الذي لا يزول نملُّ هكذا متضجّرين. وكيف لا نتذكَّر دائماً أتعاب الرسل وشدائد الأنبياء ومصاعب القديسين الذين هجروا الأهل والوطن وصبروا على الجوع والعطش وكابدوا السياحة في البراري المقفرة والجبال الموحشة والطرق المخيفة. واحتملوا العذاب من الأعداء وعانوا من القتل والحريق والغرق والسجون والقيود والسباع الضارية وأمثال ذلك من الشدائد البليغة وكانوا مع ذلك فرحين مسرورين. فسبيلنا أن نتشبَّه بهؤلاء القديسين والشهداء المغبوطين لنفوز بملكوت ربنا الذي له المجد إلى الأبد، آمين.

شيء مستطاع للمؤمن» تعني أيضاً أنه بلا إيمان لا شيء يستطاع. يعلّمنا قديسو الكنيسة أن أدهى حبائل الشيطان هي «التخدير الروحي»، إذا جاز التعبير. هذا التخدير الذي متى أصاب الإنسان يعميه، فلا يعود واعياً لبؤس حاله فلا يشتهي التغيير، العودة، أي التوبة. الإبن الشاطر ما قرر العودة إلى البيت الأبوي إلا متى وعى شقاه (لوقا ١٥: ١٧–١٨). يرى بعض شرّاح الكتاب المقدّس أن الشخصية المحورية في هذا المقطع الإنجيلي هي الأب لا ابنه المريض، ولعلهم في هذا مصيبون. أن يعي الإنسان قلة إيمانه هو بلا ريب الخطوة الأولى السديدة على طريق الإيمان الكياني العميق. هذا الوعي لا يكون بلا شيء من استنارة. كلمات الرب يسوع فتحت عيني أبي الصبي واستدرّت دموعه، وهي دموع توبة بلا شك.

المسيح أتى إلينا مبشِّراً بملكوت الله، ومحققاً إياه بيننا، والعجائب ما كانت إلاّ نذيراً بغلبة ملكوت الله على سلطة الشيطان. لكن هذا يتطلّب إيمانًا كيانيًا، عميقًا ومتينًا.

من أقوال البار يوحنا السلمي

+ ان جميع الذين بادروا إلى الزهد في العالم لا بد انهم زهدوا فيه أما في سبيل الملكوت الآتي أو لكثرة خطاياهم أو حبًا بالله. وإن كان اعتزالهم العالم ناجماً عن سبب آخر فهو اعتزال أحمق، غير ان إلهنا الصالح واضع هذا الجهاد ينتظر نهاية سعيهم ليحكم عليه.

+ ان من يحب الله حقيقة، ويلتمس الملكوت حقيقة، ويتوجع حقيقة لهفواته، ويلهج حقيقة بذكر الدينونة والعذاب الأبدي، وتلازمه حقيقة مخافة ساعة الموت، لن يتعلّق ولن يهتم ولن يبالي بأموال أو أملاك أو والدين أو مجد دنيوي أو أصدقاء أو اخوة أو أي شيء أرضي على الإطلاق، لكنه إذ قد طرح عنه كل ارتباط وكل انشغال بأمور الأرض، بل مقت جسده قبلها، فهو يتبع المسيح عارياً بلا هم ولا تثاقل، متطلعاً دوماً إلى السماء ومتوقعاً المعونة من هناك، حسب القول المبارك: «التصقت نفسي بك» (مز ٨:٦٣).

+ التوبة تجديد للمعمودية. التوبة عهد مع الله لبدء حياة أخرى. التائب هو من يبتاع التواضع. التوبة هي التخلي الدائم عن التعزيات الجسدانية. التوبة هي الحكم على الذات والاهتمام بالنفس دون الارتباك بأي شيء آخر. التوبة ابنة للرجاء وجحود لليأس. التائب مجرم غير مرذول. التوبة مصالحة مع الرب بعمل الصالحات المضادة للزلاّت السابقة. التوبة تطهير للوجدان. التوبة صبر على كافة المكدرات. التائب هو من يبتدع العقوبات لذاته. التوبة تضييق شديد على المعدة وتقريع حاد للنفس.

بشارة والدة الإله

بمناسبة عيد بشارة سيدتنا والدة الإله الكليَّة القداسة يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة صلاة الغروب عند السادسة من مساء السبت ٢٤ آذار ٢٠٠٧ وخدمة القداس الإلهي عند التاسعة والنصف من صباح الأحد ٢٥ آذار ٢٠٠٧ في كنيسة بشارة السيدة في الأشرفية.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb